ماذا علمـــتنى الحياة ؟
ســيرة ذاتيــة

أمين، جلال.
ماذا علمتنى الحياة ؟: سيرة ذاتية/ تأليف جلال أمين. ـ القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧. ـ ٣٩٤ ص؛ ٢٤ سم.

عرض
م.أحمد مصطفى البحيرى

هذا الكتاب هو السيرة الذاتية للدكتور جلال أمين، واحد من أهم كتاب مصر حالياً، تحظى كتاباته بإقبال كبير من القراء، اهتمام من النقاد على اختلاف ميولهم الفكرية، فكتاباته دائماً ما تثير حراكاً مطلوباً فى الحياة الثقافية العربية عموماً والمصرية خصوصاً.

والكتاب يتكون من تسعة عشر فصلا يسبقهم تمهيد، ثم مقدمة، وملحق به قائمة بمؤلفات الدكتور جلال أمين، ثم مجموعة من الصور له والأفراد عائلته وأسرته الصغيرة فى مراحل عمريه مختلفة. ويهدى المؤلف كتابه إلى زوجته وأولاده وأحفاده، ستة أشخاص ملئوا حياته بالبهجة.

فى التمهيد يقول المؤلف إنه بدأ فى كتابة هذا الكتاب منذ عشرين عاماً عندما كان يقضى سنة للتدريس، والبحث فى جامعة كاليفورنيا، وزاد ما كتبه مع مرور الزمن حتى بدا وكأن لديه شيئاً يصلح لأن يكون سيرة ذاتية إذا أحسن ترتيبه وتنقيحه واستكمل الناقص فيه. يحدد المؤلف فى التمهيد الأسس التى ألزم بها نفسه عند الكتابة عن بعض الأشخاص الذين ذكروا بالاسم فى كتابه، ويرى أن من حقه أن يوجه النقد، حتى ولو كان شديداً أو قاسياً إلى الشخصيات العامة مثل السياسيين ؛ فتاريخهم ملك للناس جميعاً. وقد فعل ذلك فى مواقع كثيرة من الكتاب.

وفى نهاية التمهيد يكتب المؤلف أن دافعه الأساسى لتأليف هذا الكتاب هو الأمل فى أن يجد بعض القراء فيه ما قد يخفف عنهم بعض الأحزان، أو يزيد من قدرتهم على الاستمتاع ببعض بواعث السرور ــ أو حتى على الأقل ــ أن يعرفوا أن الناس أشبه بعضهم ببعض مما قد يُظن، سواء فيما يتعرضون له من بواعث السرور، أو فيما يصادفوه من خيبة أمل. ولا شك أن هذا الاهتمام بالقارىء؛ الذى يعبر عنه المؤلف بصدق هو أحد أهم أسرار نجاح كتبه.

فى مقدمة الكتاب يشير المؤلف إلى قول منسوب لنحات شهير مؤداه أنه كان يفرح فرحاً عظيماً عندما يصادف كتلة كبيرة من الحجر إذ كان بمجرد أن يراها يتصور التمثال الذى يمكن أن يستخرجه منها، وأن كل

المطلوب منه هو أن يقتطع بأدواته قطعة صغيرة من الحجر بعد أخرى لكى يخرج هذا التمثال الكامن فى جوفها.

يتصور المؤلف أن حالة هذا النحات هى كحالاتنا جميعاً، وأن حياة كل منا تشبه قطعة الحجر فى هذا التصور، وفى داخل حياة كل فرد يكمن تمثال جميل، ولا يحتاج كاتب السيرة الذاتية إلا إلى استخراج التمثال الجميل الكامن فى قطعته الحجرية، وهو يفعل ذلك بنفس الطريقة، أى باستبعاد الأجزاء غير الهامة التى تخفى هذا التمثال الجميل، وهذا ما حاول كاتبنا أن يستغنى عما يغطى التمثال ويطمس ملامحه ويخفى مغزاه. ولكنه يتحفظ من ناحية أخرى ليعبر عن خشيته من أن عملية الاستبعاد التى قام بها ربما لم تكن على القدر اللازم من الدقة والمهارة والموضوعية بحيث أطاحت ببعض الملامح الهامة. ثم يستدرك ليقول إنه قد بذل كل ما يستطيع من جهد فى توخى الدقة والموضوعية، وأن ذكر الحقيقة كلها معناه أن تبقى قطعته الحجرية على حالها وهو أمر لا يستسيغه ككاتب ولا يظن أن القارىء سيتحمله أو يستسيغه.

يتذكر المؤلف فى مقدمته أيضا قصة فيلم بولندى قصير صامت يبدأ بمنظر لبحر واسع يخرج منه رجلان يرتديان ملابسهما كاملة ويحملان معاً ــ كل من طرف ــ دولاباً عتيقاً ضخماً يسير الرجلان وهما يحملان هذا الدولاب بمشقة كبيرة، ويحاولان التحرك به فى أنحاء المدينة وسط الزحام فى محاولة مستميتة للمضى فى الحياة وهما يحملان دولابهما الثقيل، فيفشلان وينتهى بهما الأمر بالعودة إلى البحر ليغيبا فيه شيئا فشيئاً. يرى المؤلف أن حالنا جميعاً مثل حالة هذين الرجلين، نمضى فى الحياة حاملين دواليبنا الثقيلة، غير المرئية، كقدر مكتوب لا مفر منه . لم يختر أحد دولابه، فهو لم يختر أباه، أو أمه، أو عائلته، أو عدد أخواته، أو ترتيبه بينهم، كما لم يختر طوله أو قصره، أو درجة وسامته، أو مواطن القوة والضعف فى جسمه أو عقله.وليس لديه أى أمل فى التخلص من كل ذلك أو بعضه. كل منا يحمل دولابه ويمضى إلى أن يعود إلى البحر الذى جاء منه مره أخرى.

الفصل الأول قصير ويحمل عنوان "ولادة متعسرة"، وفيه يقص المؤلف عن إصرار أبيه على الاكتفاء بالأبناء السبعة الذين بقوا له على قيد الحياة من عشر ولادات، وبالتالى أصبح على الأم أن تقبل بأن تُجهض فى حملها فى الابن الثامن. ومن ناحية أخرى فقد أصرت الأم على الاحتفاظ بحملها ولجأت إلى كل الحيل الممكنة لتحقيق ذلك، ونجحت فى التغلب على إصرار الأب، وجاء الطفل ــ الذى أصبح بعد ذلك الدكتور جلال أمين ــ إلى الحياة.

فى الفصول من الثانى حتى السابع يكتب المؤلف عن أبيه وأمه وبيت العائلة، وعن أخوته السبعة، وعن أصدقاء ومباهج صباه.

الأب ابن لرجل سلك الدرج المعتاد فى زمنه للخروج من زمرة الفلاحين المطحونين، وهو درب العلم، والعلم الأزهرى على وجه الخصوص، فنجح فى انتشال نفسه والارتقاء بها حتى صار من علماء الأزهر. ولابد أن هذا النجاح قد حثه على ضرورة الاهتمام بتعليم أبنائه. ينقل المؤلف عن أحد كتب أبيه جزءاً يبين البرنامج التعليمى الذى وضعه الجد لابنه، وهو برنامج مرهق يشهد على حيرة واضحة بين التعليم المدنى، والتعليم الدينى وأيهم أبدى بالاتباع، وينتهى الأمر ببرنامج خليط يثقل كاهل الاثنين.كان على الابن أن يستيقظ مع الفجر فيصلى مع أبيه، ثم يقرأ جزءاً من القرآن، ويحفظ متناً من المتون الأزهرية كألفية ابن مالك فى النحو، ومع شروق الشمس يفطر، ثم يذهب إلى المدرسة. فى فسحة الظهر يتغذى على عجل فى المدرسة، ثم يذهب إلى كُتاب بمسجد قريب من المدرسة ليسمع لفقيهه جزءا من القرآن، ثم يعود إلى المدرسة ليحضر حصص بعد الظهر. وبعد انتهاء اليوم الدراسى يذهب

إلى المسجد الذى يؤم فيه أبوه المصلين ليصلى، ثم يحضر دروساً دينية يلقيها أبوه بين المغرب والعشاء. وأثناء العودة للبيت يقوم الأب بتحفيظ ابنه بيتاً أو بيتين من الشعر. يحتج الأب فى كتابه على هذا الأسلوب القاسى، ولكن مؤلفنا لا يوافق على رأيه تماماً، ويرى أنه لا أحد يستطيع أن يقطع برأى حاسم عن جدوى او عدم هذا الاهتمام المبالغ فيه بتعليم الأبناء.

وقد أبدى الأب اهتماماً بالغاً — هو الأخر — باختيار التعليم الأفضل لأبنائه، وقرر إرسال أول أبنائه إلى مدرسة الفرير الفرنسية لشعوره بأهمية إتقان الأبناء لأحد اللغات الأجنبية. إلا أن التجربة فشلت. فاختار لأبنائه الباقين الالتحاق بالمدارس الحكومية المدنية، ثم عمل بعد ذلك على أن ينال أبناؤه أكبر قدر ممكن من التعليم الغربى فوق الجامعى فى أوروبا، فحصل ثلاثة منهم على درجة الدكتوراه من هناك. ووافق على سفر احدى ابنتيه إلى أوروبا للدراسة إلا أن سوء الحظ لازمها فعادت دون أن يتحقق هدفها لظروف قيام الحرب العالمية الثانية.

يرى المؤلف أن أباه كان صاحب حس أخلاقى بالغ القوة، وأنه كان أرستقراطى الأخلاق والحس، كما كان صاحب طموح عظيم فى أن يخدم أمته. بعد اتمام عقد زواجه ذهب فى نفس اليوم بمفرده إلى مصور التقط له صورة، وقد استند بيده إلى بضعة كتب، ثم كتب خلف الصورة أنه يرجو من الله أن يوفقه إلى عمل عظيم ينفع به أمته.

ويرى المؤلف أن أمه لم يكن لديها نفس الحس الأخلاقى بالغ القوة الذى كان لأبيه، إلا إنها كانت أخف دما وألطف معشراً، كما كانت أكثر مكراً وأشد دهاءً، وكانت حريصة على المال حرصاً واضحاً. وعندما يكتب عن أخوته السبعة يبدأ بالقول بأن لديه اعتقاداً راسخاً بأن الاختلافات الكبيرة بين شخصياتهم وميولهم لابد أن يكون مرجعها — قبل كل شئ آخر — إلى عامل الوراثة ؛ فقد انتقل إلى كل واحد منهم جزء من مورثات الأب، وجزء من مورثات الأم بنسب تفاوتت من واحد لآخر. وعلى حسب نصيب كل منهم من مورثات كل من الطرفين اكتسب ميوله، كما اكتسب انتمائه إلى معسكر من المعسكرين. الأخ الأكبر محمد، صنفته الأم على أنه ينتمى لمعسكرها، وأغدقت عليه محبة لم ينلها أى ابن آخر، وأثبتت الأيام صدق حدسها حيث اهتم هذا الأخ بالنجاح المادى والعملى فترقى فى مجال الوظيفة وكون ثروة لا بأس بها. الابن التالى عبد الحميد ينتمى إلى معسكر الأب — حسب ما يرى المؤلف — إذ أن له نفس الحس الخلقى القوى مع قلة الاهتمام بالمال وأمور الحياة اليومية.

وبعد ان يحلل الفروق بين شخصيتى أختيه فاطمة ونعيمة — مستنداً إلى العامل الوراثى — يضطر إلى إدخال عامل إضافى عند استعراضه لشخصيتى أخويه أحمد وحافظ، وهذا العامل هو ترتيبهما بين الأخوة.

يكتب المؤلف عن أخيه حسين الذى يكبره مباشرة فيقول إنه كان أكثر أخوته أثراً فيه. ويرى أن إبراز سمات هذا الأخ هو الميل بالغ القوة إلى الاعتقاد بأنه شخص فريد من نوعه، وكانت وسيلته لإثبات ذلك هى تحصيل أكبر قدر من الثقافة. ولا يجد المؤلف تفسيراً لهذا الميل إلا عامل الوراثة.

ولابد أن القارىء قد لاحظ أن حسين وجلال هما أصغر الأبناء، وهما اللذين حققا لنفسيهما مكانة مرموقة بين كتاب مصر مثلما فعل أبو هما فى زمنه فهل من تفسير؟

وعندما يستعرض المؤلف شخصيات أصدقاء صباه مثلما استعرض شخصيات أخوته يتعزز لديه الاعتقاد بأن عامل الوراثة والاستعداد الفطرى الذى يولد به الإنسان هو أهم عامل فى تشكيل شخصيته، وتأتى بعد ذلك القيم السائدة فى بيت الأسرة . وبالتالى فإن الإنسان متى اكتسب سماته الشخصية فى بدايات حياته

يظل محتفظا بها مهما تقلبت الظروف والأحوال. بعد أن مرت سنوات وسنوات قابل المؤلف بعض أصدقاء مرحلة الصبا ليكتشف إنهم مازالوا يحتفظون بنفس سماتهم الشخصية الأساسية التي عرفها عنهم فيما سبق.

يكتب المؤلف عن مباهج صباه، ونكتشف أن هذه المباهج تكاد أن تقتصر على كتب جميلة قرأها لكتاب عظام أعجب بهم، ثم محاولات من جانبه بالاشتراك مع أخيه حسين، فى الكتابة ونشر ما يكتبونه. ويستغرب المؤلف من أن أباه قد سمح لهما بنشر بعض ما كتباه فى مجلة "الثقافة" وعمرهما يتراوح بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة.

يحكى المؤلف أيضا ضمن ذكريات مباهج صباه عن مصيف رأس البر الذى اضطرت عائلته لقضاء الصيف به بدلاً من الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية. يتذكر الجمال البدائى لهذا المكان الساحر، ويقص عن "الشاى كومبليه"، أى الشاى الكامل الذى تناوله لأول مرة فى أحد الفنادق هناك. والشاى كومبليه الذى يقص عنه المؤلف يقدم مع اللبن والكيك الإنجليزي الفاخر، والتوست، والمربى، ويأتى ذلك فى أباريق وأوانى فاخرة تزيد من سحر هذا الطقس الذى لم يستطع المؤلف أن ينساه عندما ذهب المؤلف فى عام ١٩٥٧ لقضاء بضعة أيام فى رأس البر أصيب بخيبة أمل إذ حلت المبانى الخرسانية محل العشش البدائية الجميلة، واكتظ الشاطئ بالناس فاختفى الجمال. اتضح لديه أن الطبقة التى كانت تحتكر الاستمتاع برأس البر قد طردت منه شر طردة وحلت محلها أعداد غفيرة من الناس الذين ينتمون إلى طبقات شعبية أعادت لها ثورة يوليو ٥٢ بعض حقوقها الضائعة .عاد إلى القاهرة كسير الخاطر يحمل فى رأسه أفكاره الاشتراكية، ولكن قلبه ظل يحن إلى أيام الشاى كومبليه.

وفى الفصول من الثامن وحتى العاشر، يكتب المؤلف عن فترة شبابه فيتناول سنوات دراسته فى الجامعة المصرية ونشاطه السياسي آنذاك، ثم يتناول تجربته الدراسية أثناء بعثته إلى إنجلترا لنيل درجة الدكتوراه من مدرسة لندن للاقتصاد.

عندما يتذكر السنوات الأربع (١٩٥١ – ١٩٥٥) التى قضاها طالباً بكلية الحقوق جامعة القاهرة يستولى عليه العجب من درجة الحرمان؛ الذى تعرض له طلبة الكلية من أى حياة جامعية حقيقية، ويندهش أكثر عندما يتذكر أنهم (هو وزملائه) لم يدر بخلدهم على الإطلاق أنهم يتعرضون لأى حرمان بالمرة. ويقارن كثيراً بين الحياة المدرسية التى عاشها فى كلية الحقوق بالقاهرة والحياة الجامعية التى خبرها عندما سافر بعد ذلك للدراسة فى لندن.

كانت كلية الحقوق مجرد مكان لتلقى الدروس بطريقة مملة، خالية من الحماس فى الغالب. فى بعض الأحيان شعر المؤلف بأنه لم يكن فى حاجة حتى لحضور الدروس مادام فى مقدوره شراء الكتاب المقرر واستذكار ما فيه. لا يتذكر أنه قد دخل حجرة من حجرات الأساتذة باستثناء مرة أو مرتين وهو طالب بالدراسات العليا، ويتذكر جيداً أن الكلية لم يكن بها مكانا لتجمع الطلبة غير قاعات التدريس الضخمة، إذ لم يكن هناك أى نوع من النشاط الطلابى. ولم تكن هناك أى علاقة على الإطلاق بين الطلبة والطالبات وكأن كل جنس يعيش فى عالم منفصل، إلا أن اليأس يرتسم على وجوه الجميع بدرجات ربما تفاوتت.

فى مقابل ذلك الجو القاحل فإن الحياة الجامعية فى مدرسة لندن للاقتصاد تميزت بالحيوية والفرح والنشاط. القهقهات تصدر عالية من أفواه الأولاد والابتسامات الرائعة مرتسمة على وجوه الطالبات الجميلات، والأساتذة رائحون غادون قد يصادفهم الطلبة فى المطعم أو الكافيتريا، ومن الممكن أن يدور حوار بين طالب وأستاذ أثناء تناول القهوة بين المحاضرات، أو حتى فى الممرات أو على السلالم.

مر بالمؤلف أثناء دراسته بكلية الحقوق بعض الأساتذة العظماء — ولكنهم كانوا على حد قوله — حفنة صغيرة وسط عدد كبير من الأساتذة، ويعرب عن عدم ثقته فى أن الطلبة قد أفادوا فائدة كبيرة من علمهم الواسع. ثم يكتب ببعض التفصيل عن مجموعتين من الأساتذة، أساتذة الشريعة الإسلامية الذين كانوا يشهدون بداية أفول لنظامهم آنذاك، وأساتذة الاقتصاد الذين كانوا بمثابة فاكهة الموسم منذ نهاية الأربعينيات من القرن.

يبدى المؤلف إعجابه بأساتذة الشريعة الذين صادفهم أثناء دراسته بكلية الحقوق، ويرى أن هناك عوامل سلبية أثرت على مدى استفادة الطلبة من علمهم الواسع. العامل الأول هو طريقة إلقاء الدروس فى الكلية والتى اقتصرت على مجرد جلوس الأستاذ إلى منضدة عليها ميكروفون يلقى محاضرته من خلاله بدون أى تفاعل أو نقاش بين الملقى والمتلقي. والثانى هو ما شعر به أساتذة الشريعة من غربة فى كلية لا تحتل فيها الشريعة الإسلامية المكانة الجديرة بها ؛ فالعميد، ومعظم الأساتذة من العلمانيين الذين ينظرون إلى الشريعة كزائدة فى الجسم، لها أصل تاريخى معروف، ولكنها لم تعد تلعب دوراً مهماً فى المجتمع، ومصيرها إلى الزوال التدريجى. أما الطلبة فأغلب الوظائف التى يطمحون إليها هى وظائف تعتمد على تطبيق قوانين مستمدة من القوانين الفرنسية.

يرى المؤلف أن الانسجام بين نوعى الثقافة فى مصر — الإسلامية والعلمانية — الذى ساد فى فترة بين الحربين قد بدأ يتعرض للاهتزاز فى مطلع الخمسينيات (لصالح العلمانية). ولا يشك فى أن قيام الثورة فى عام ١٩٥٢ قد ساعد على ذلك إذ كان رجال الثورة ذوى ميول واضحة للعلمانية والتغريب.

وعلى الطرف الآخر من أساتذة الشريعة كان أساتذة الاقتصاد، لقد بدوا أمام طلابهم أكثر الأساتذة عصرية وتمدناً. فمنذ أواخر الأربعينيات كان علم الاقتصاد قد بدأ يحظى باهتمام واحترام متزايدين مع زيادة الاهتمام بمشكلة الفقر وتوزيع الدخل.

يعرض المؤلف آرائه فى أساتذة الاقتصاد الذين عرفهم فى كلية الحقوق، ولأنه هو الآخر أصبح أستاذاً فى الاقتصاد ؛ فقد أتاح له ذلك فرصة تتبع مسار الحيوات العملية لأغلب هؤلاء الأساتذة، وأدى ذلك فى بعض الأحيان إلى تأييد حكمه الأولى عليهم، وفى أحيان أخرى تغير حكمه مثلما حدث مع الدكتور سعيد النجار ؛ لقد أعجب المؤلف — وهو طالب — بالدكتور النجار، رغم الاختلاف الفكرى بينهما، ثم غير رأيه بعض الشىء عندما احتك به عمليا، ثم هاجمه عندما أيد الدكتور النجار فكرة الشرق الأوسط الكبير التى طرحتها الولايات المتحدة. ولكن الدكتور النجار — كما يروى المؤلف — تراجع عن هذا التأييد بعد ذلك، وتقبل المؤلف ذلك، وعادت العلاقة بينهما إلى درجة من الهدوء.

تعرف المؤلف خلال سنوات دراسته بالجامعة على فكرة العروبة والوحدة العربية، حدث ذلك عن طريق تعرُّفه على مجموعة من الطلبة الأردنيين، والسوريين، واللبنانيين الذين كانوا يدرسون فى جامعة القاهرة، وكان أغلبهم أعضاء فى حزب البعث الاشتراكى العربى. دارت مناقشات بينهم وبين المؤلف أدت فى النهاية — مع بعض القراءات — إلى اعتقاده بسلامة الفكرة. يبدى المؤلف عجبه من عدم انتشار الاعتقاد بالقومية العربية فى مصر آنذاك، رغم الحماس الذى كانت تقبل به نفس الفكرة فى بلاد عربية أخرى كثيرة ؛ وعلى الأخص فى بلاد الشام. ينتهى الأمر بالمؤلف إلى أن يصبح أحد أهم الأعضاء المصريين فى حزب البعث.

ولكن المؤلف يقترب بعد ذلك من الفكر الماركسى ويعجبه آنذاك ما يقدمه هذا المذهب من أفكار قاطعة، خاصة عندما قارنها بأفكار حزب البعث العاطفية

الفضفاضة. وعندما قبل حزب البعث السوري حل نفسه، كشرط لقبول عبد الناصر للوحدة بين مصر وسوريا ذهل البعثيون المصريين واعتبروا هذه الخطوة خطأً سياسياً فادحاً. ثم قدم المؤلف استقالته من حزب البعث فى وقت لاحق عن طريق بعض الدارسين العراقيين الذين قابلهم فى لندن أثناء دراسته هناك، ولكن إيمانه بالقومية العربية لم يخفت. البعثة إلى لندن حصل عليها المؤلف بعد تخرجه من كلية الحقوق بعامين، وكانت للحصول على درجة الدكتوراه من مدرسة لندن للاقتصاد. كان الأستاذ المشرف عليه منذ وصوله إلى لندن وحتى حصوله على درجة الماجستير هوليونيل روبنز، وتخصصه الأساسي هو تاريخ الفكر الاقتصادى. السنة الأولى التى قضاها المؤلف فى لندن كانت مخصصة لإعداده للدراسة المنهجية فى علم الاقتصاد نظرا لعدم كفاية ما يدرسه عن هذا العلم فى كلية الحقوق. يقول المؤلف عن هذه السنة إنها كانت – رغم قصرها– من أخصب فترات تكوينه العقلى، تعرف فيها على عادات جديدة فى التفكير والكتابة، اقتنع بها، ثم اعتاد ممارستها منذ ذلك الحين. ويقصد بذلك عادات التفكير العلمى، والتعبير عن الأفكار بأقصر وأوضح الطرق.

ثم جاءت أربع أو خمس سنوات أخرى من القراءة فى الاقتصاد بهدف الحصول على شهادة الماجستير، ثم الدكتوراه، يقول المؤلف إنه عندما يستعيد فى ذهنه ما قرأه فى هذه السنوات من كتب، ومقالات فى الاقتصاد يدهشه قلة ما أحرزه فيها من تقدم عقلى حقيقى.

ويقدر المؤلف أن حوالى سدس الوقت الذى قضاه فى بعثته ذهب إلى القراءة عن الماركسية. يتحدث المؤلف عن المناقشات التى دارت بين أستاذه وبينه ؛ والتى كشفت ميوله الاشتراكية والماركسية، ويتحدث أيضاً عن القراءات التى وجهه إليها أستاذه، وكلها أمور أدت فى النهاية إلى تعوده على قراءة الرأى ونقيضه، ومن ثم اكتشافه أن المسألة لا يمكن أن تكون بالبساطة التى كان يظنها فى البداية، وفتر حماسه للماركسية شيئاً فشيئاً، فاصبح يرى الماركسية كحلقة فى سلسلة طويلة من تطور الفكر الاقتصادى، قد تكون أفضل من الحلقات الأخرى فى أشياء، ولكنها أسوأ فى أشياء أخرى.

ولكن حماسة المؤلف لضرورة تحقيق نوع من عدالة توزيع الدخل لم تفتر، وحاول أن يعثر فى علم الاقتصاد آنذاك على تفسير، وعلاج لانقسام المجتمع إلى طبقات فقيرة، وأخرى غنية، ولكنه لم يجد سوى اهتماماً بقضايا جزئية أقرب إلى نظرية الثمن منها إلى قضايا الاقتصاد السياسى.

ومن ناحية أخرى كانت فترة البعثة هى فترة وقوعه فى الحب الحقيقى لأول مرة، وزواجه ممن أحب. يعرض المؤلف – فيما لا يزيد عن ثلاث صفحات– قصة حبه وزواجه، والمخاوف التى راودته من الزواج من فتاة إنجليزية، ثم محاولات الطرفين لبناء حياة زوجية مبنية على الحب والتفاهم ونجاحهما فى ذلك وسعادتيهما بهذا النجاح.

يخصص المؤلف الفصل الحادى عشر للكتابة عن ثورة ١٩٥٢ وعن انطباعه وآرائه عنها. يقول إنه مثل أغلب المصريين قد فرح بالثورة، ثم حزن وغضب عندما تمت تنحية محمد نجيب، ثم غضب مرة أخرى عندما أبرمت اتفاقية الجلاء عن منطقة القناة مع بريطانيا نظراً لما أعطته هذه الاتفاقية من حق للقوات البريطانية فى العودة إلى منطقة القناة فى حالة نشوب حرب. ثم فرح بقرار الوحدة مع سوريا، وبالقرارات الاشتراكية، وشاب ذلك الفرح شعور بآلام نفسية مبرحة عندما اصطدم هو شخصياً ببعض الإجراءات البوليسية التى كانت تصحب إجراءات الخروج والدخول من وإلى مصر آنذاك. وازداد حزنه عندما وقعت بعض الأحداث السخيفة من قبل الدولة تجاه بعض الأشخاص المقربين

منه، مثل شقيقه الأكبر الذى أحيل للمعاش نتيجة بعض الوشايات الرخيصة، أو أحد أصدقائه المقربين الذى تم اعتقاله لسبب غامض.

أما هزيمة ١٩٦٧فقد صدمته صدمة مروعة ومفاجئة شبهها بصدمة قوية ومفاجئة من سيارة مسرعة. أثارت هذه الصدمة فى عقله تساؤلات عن جدوى الإجراءات البوليسية، التى ربما رضى عنها، رغم تجاربه الشخصية، عندما ظن أنها صممّت ونُفذت على أساس حماية بلد يسعى للاشتراكية والوحدة العربية، فهل كانت تلك الإجراءات مصممة أساسا للدفاع عن نظام الحكم ؟! هكذا يتساءل المؤلف، وعندما مات عبد الناصر تلقى الخبر بهدوء.

يكتب المؤلف بعد ذلك عن فترة حكم السادات ويرى أنه بعد عبور الجيش المصرى لقناة السويس فى ١٩٧٣، بدى وكأن النظام لم يكن يشغله شئ سوى تحقيق مخطط أمريكى إسرائيلى لعقد صلح منفرد، ولفتح الاقتصاد المصرى أمام الواردات ورؤوس الأموال الأجنبية بلا ضابط، وعلى حساب الصناعة المصرية، وهو ما سُمى بسياسة الانفتاح الاقتصادى. وقد تم تدشين هذه السياسة فى عام ١٩٧٤. أما عقد الصلح المنفرد، الذى يصفه المؤلف بأنه مهين، فقد تم توقيعه بين مصر وإسرائيل فى عام ١٩٧٩. ويبدى المؤلف عدم احترامه لسياسات السادات ولشخصه، ويقول إنه بعدما عاش فترة حكم السادات أعاد النظر فى رأيه فى جمال عبد الناصر، وبدى له رجلاً محترماً للغاية بالمقارنة بخليفته. يكتب المؤلف أنه ليس عجيباً — بناء على ما سبق — أنه قد شعر بالابتهاج عندما سمع بمقتل السادات فى عام ١٩٨١.

يرى المؤلف أنه، بعد عشرين عاماً من استلام مبارك للسلطة؛ ورغم البداية المثيرة للتفاؤل تبين له أن نفس أسباب السخط على سياسات السادات قد استمرت فى عهد مبارك، وأن الفرق الوحيد بين العهدين هو أسلوب تطبيق هذه السياسات. كان السادات يطبقها بجرأة دائماً، وفى كثير من الأحيان كان يطبقها بصفاقة، أما فى عهد مبارك فكانت نفس السياسات تطبق بهدوء ودون تهييج للناس. ويقدم المؤلف عرضاً سريعاً للظواهر والأحداث التى لاحظها والتى أدت إلى تبنيه هذا الرأى.

فى الفصول من الثانى عشر وحتى الخامس عشر يعرض المؤلف لحياته العملية وذلك فى كلية الحقوق جامعة عين شمس، أول محطة له بعد أن عاد من إنجلترا، ثم فى الصندوق الكويتى، ثم فى جامعة كاليفورنيا، ثم فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

عندما يكتب عن كلية الحقوق فإن عدم الرضا، أو ربما الغضب، يكون هو النغمة المسيطرة. مجتمع من الطلبة البائسين الذين يريدون النجاح بأى ثمن فى جو مشبع بجشع أساتذة لا يهتمون سوى بجمع المال الشحيح عن طريق طبع أكبر قدر ممكن من المذكرات، والكتب، وضمان بيعها لطلبة يدبر غالبيتهم أثمانها بشق الأنفس. ولكنه وجد بالكلية نقطتين مضيئتين هما الدكتور حلمى مراد، والدكتور إسماعيل غانم وكلاهما وصل إلى كرسى الوزارة فى وقت ما من حياته، ثم تركه بإرادته غير نادم. ولكن إعجابه بالدكتور حلمى مراد يفوق إعجابه بالدكتور إسماعيل غانم بدرجة واضحة.

وبدأ المؤلف عمله بالصندوق الكويتى فى أواخر عام ١٩٧٣، ويقول إن الدافع لقبوله تلك الوظيفة هو عدم موافقته على ما أسماه "الخطة المحكمة" لدفع مصر للتصالح مع إسرائيل عقب حرب أكتوبر. ولا بد أن هذا الدافع كان قوياً فعندما سافر المؤلف إلى الكويت كان ذلك يعنى تركه لوظيفته فى كلية الحقوق على نحو نهائى، وتركه لوظيفة جانبية للتدريس بعض الوقت فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

لم يعجبه العمل بالصندوق الكويتى أيضاً، وأحس أن هذا الصندوق ليس أكثر من تابع للبنك الدولى. ولكنه استمتع بالرحلات إلى مختلف البلاد (بلاد آسيا

أساساً) التى أتاحها له العمل هناك، وعمل على استغلال تلك الرحلات فى جمع الملاحظات عن التنمية واختلاف مظاهرها ومراحلها من بلد لآخر، مع محاولة تقصى الأسباب والبحث عن تفسيرات.

وعندما تلقى المؤلف عرضا من أحد الأساتذة الأمريكيين لقضاء عام دراسى فى الولايات المتحدة للتدريس وإجراء الأبحاث فى مركز للأبحاث بجامعة كاليفورنيا قبل دون تردد. ولكن فى هذه المرة لم يتحمل المخاطر العالية التى تحملها عند تركه العمل فى مصر إذ إن رئيس الصندوق الكويتى كان كريماً ؛ كعادته مع الجميع، فجدد عقده الذى كانت مدته تنتهى خلال إقامته فى الولايات المتحدة.

يقول المؤلف إنه كان قد قرأ رواية جورج أرويل، المعنونة "١٩٨٤"، قبل ذهابه إلى الولايات المتحدة بسنوات، وكان يعرف الرأى الشائع بأنها كُتبت أساساً لنقد النظام الشمولى فى الاتحاد السوفيتى، فالأخ الأكبر فى هذه الرواية هو ستالين، وبوليس الفكر هو جهاز المخابرات السوفيتى ...... ألخ. ولكنه وجد فى الرواية ما هو أكثر من ذاك بكثير، كما أن قراءته لأعمال أخرى لارويل جعلته يعتقد أن ما أقلق أرويل ليس النظام الشمولى السوفيتى فى حد ذاته، بل قدرة المجتمع التكنولوجى على قهر الفرد، وإن نمو قدرة الدولة إنما هو نتيجة حتمية لنمو قدرة المجتمع التكنولوجيه.

عندما ذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٧٨ ؛ تلبية للعرض، وجدها أمة يعشق أفرادها أن يكونوا أعضاء فى فريق، يفعل كل منهم مثلما يفعل الآخرون فيهتفون نفس الهتافات ويهيمون بنفس الأبطال والنجوم. وهم يثقون فى رؤسائهم أكثر من اللازم، ويقبلون ما يقال لهم بدون شك أو تمحيص، وهو ما يسهل مهمة الدولة فى حكمهم. إذ يبدوا الأمريكيون وكأنهم أسهل أمم العالم انقياداً، ويمكن لوسائل الإعلام أن تغير مسار الرأى العام من اتجاه إلى نقيضه بمجهود بسيط ؛ إذ لا يحتاج الأمر إلى الكثير من الحجج والبراهين مثلما هو الحال فى أوروبا فقط إلى استخدام أنواع المؤثرات التى تستخدم للدعاية للسلع، وهى مؤثرات لا تخاطب المنطق بقدر ما تخاطب اللاشعور.

يعرض المؤلف أيضاً لبعض النواحى التى رأى أنها سلبية فى شخصية الفرد الأمريكى مثل ولعه بالأشياء الصناعية، وتفضيلها على الطبيعية، وولعه باستخدام الأرقام ولو بغير لزوم، وغرامه بالسرعة والتسرع والحياة فى حالة انشغال دائم ليس له ما يبرره فى أكثر الأحوال. ويقول إن انطباعه العام آنذاك عن نمط الحياة الأمريكية لم يكن إيجابيا بالمرة، وأنه مازال يحمل هذا الانطباع حتى الآن. إلا أنه كان وقتها ومازال حتى الآن مستعداً للاعتراف بفضل التجربة الأمريكية على ارتفاع مستوى معيشة الفرد العادى، ليس فى أمريكا وحدها بل فى العالم ككل.

أسفرت مدة عمله فى جامعة كاليفورنيا عن بحث نُشر بالعربية فى صورة كتاب حمل عنوان "المشرق العربى والغرب"، ثم نشر بالإنجليزية فى كتاب مشترك.

عندما دخل المؤلف مبنى الجامعة الأمريكية بالقاهرة لأول مرة فى عام ١٩٦٦، للعمل كمحاضر لبعض الوقت، وجدها أشبه بواحة صغيرة وسط صحراء واسعة مجدبة. كل شئ فيها عكس ما يجرى خارجها، فبمجرد أن يتجاوز المرء عتبة بابها يجد من النظافة والجمال مالا يجد مثله خارج الباب. يعقد المؤلف بعض المقارنات السريعة بين الجامعة الأمريكية وكلية الحقوق جامعة عين شمس من حيث المرافق، والحجرات والقاعات، والطلبة والطالبات، والفرص المتاحة لهم لتلقى العلم والاطلاع وممارسة مختلف الأنشطة. وبالطبع جاءت نتائج كافة المقارنات فى صالح الجامعة الأمريكية.

وعندما تلقى وهو فى كاليفورنيا عرضاً للعمل فى الجامعة الأمريكية على أساس دائم قبل بدون تردد. ولكنه بعد أن عمل بها لفترة طويلة اتضحت له مثالب ذكرته بمثالب كليته القديمة. كان المؤلف أمينا فى عرض تلك المثالب، ومن الممكن أن يخرج القارىء بانطباع بأن اغلبها يعود إلى وجود فكرة مثالية أكثر من اللازم لدى المؤلف عن أستاذ الجامعة، فلما تعامل مع أساتذة الجامعة الأمريكية وجد أنهم ـ باستثناء قله نادرة للغاية ـ رجال من لحم ودم لهم تطلعاتهم المادية مثل غيرهم، وذوى أهواء وتحيزات صارخة تحكم آراءهم ومواقفهم، كما أن صبرهم على مناقشة فكرة حقيقية ضئيل للغاية.

يحكى المؤلف قصة عن لجنة شُكلت داخل الجامعة الأمريكية ولتحديد موعد بدء الدراسة بها بعد حرب ١٩٧٣، وكان هو أحد أعضائها. وبعد أن عقدت اللجنة عدة اجتماعات فوجئت ذات يوم بقرار فوقي من مدير الجامعة بفتح أبواب الجامعة فى اليوم التالى. انصرف أعضاء اللجنة فى ذهول وهم يتساءلون عن جدوى كل اجتماعاتهم السابقة اللهم إلا التظاهر بالديموقراطية وتبادل الرأى. ولكنه يقول فى موقع آخر من نفس الفصل إنه لم يصادف أثناء عمله بالجامعة الأمريكية الكثير من المشاكل من النوع الذى يثير قضية أخلاقية.

يناقش المؤلف بعد ذلك، سؤالا ألح عليه عند العمل بالجامعة الأمريكية، وهو : هل العمل بجامعة أجنبية على أرض مصر والتدريس بلغة غير لغة البلد الأصيلة عمل يتناقض مع الوطنية؟ ويناقش هذا الأمر بطريقة هادئة، وواقعية ويتوصل إلى إجابات أرضته بالتأكيد، كما أنها يمكن أن ترضى من يقرأها بموضوعية. فأغلب طلبته فى الجامعة مصريين، والتدريس باللغة الإنجليزية أتاح له فرصة عرض أفكار أغلب كبار المفكرين الاقتصاديين بنفس اللغة الأصلية التى كُتبت بها. ويقول فى النهاية إن راحة البال التى يحصل عليها من العمل فى مكان كالجامعة الأمريكية تجب أى عيب من العيوب التى ذكرها، فراحة البال هذه سمحت له بالقيام بأعمال، لخدمة وطنه وطلبته قد تمنعه منها ظروف العمل بجامعة مصرية.

يناقش المؤلف فى هذا الفصل أيضاً فكرة أن العمل بالتدريس قد يكون أقل فى الأهمية من العمل فى حقول التأثير الفعلية العملية خارج جدران الجامعة. هناك عبارة ساخرة للكاتب الأيرلندى الشهير برناردشو عرضها المؤلف، وهى : "من يعرف كيف يقوم بعمل ما، يقوم به بالفعل، ومن لا يعرف، يقوم بتدريسه".

ولاشك أن هذه الفكرة ظالمة إلى حد كبير، ولكن لا يسع المرء إلا أن يتساءل عما دفع المؤلف إلى الاهتمام بمناقشتها. يورد المؤلف بعض الدوافع التى أدت به إلى التمسك بالمهنة التى يحبها، وبعض هذه الدوافع من الممكن أن يفخر بها المرء، أما بعضها الآخر فقد كان بوسع المؤلف أن يتناساه، ولكنه لم يفعل. يقول إن الإعجاب والتقدير الذى يلقاه من تلميذاته، خاصة الجميلات منهن، كان مبعث سرور كبير له، إذ كان لديه شعور دفين، منذ سن مبكرة للغاية، بأنه من الصعب جداً أن تُعجب به فتاة أو امرأة، وأنه لا يدرى من أين جاءه هذا الشعور اللعين.

فى الفصل السادس عشر يعرض المؤلف بدايات رحلته فى عالم الكتابة فى الأمور العامة، فيحكى عن مقال له نُشر فى مجلة " الأهرام الاقتصادى" فى عام ١٩٨٢، كان قد كتبه فى عام ١٩٨٠ عندما شعر بالغضب لدى قراءاته لورقة أسئلة اللغة العربية للشهادة الابتدائية، الذى حضرته ابنته فى صيف عام ١٩٨٠. غضب لأنه وجد أن أغلب أسئلة الامتحان تتعلق

بالسلام، وكأنه القيمة الوحيدة التى تستحق الغرس فى نفوس الصغار، وهو أمر نتج -حسبما يرى- عن رغبة الممتحن فى مداهنة الحكام الذين قاموا بإبرام اتفاق السلام مع اسرائيل. لم يتأكد من أن المقال جيد الا عندما قال له بعض من قرأه أنه كذلك، وكان هذا هو بداية شعوره بأنه قد يكون أكثر من مجرد أستاذ فى الاقتصاد. ولم يتوقف منذ ذلك الوقت عن الكتابة فى الأمور العامة.

الفصل السابع عشر يحمل عنوان "التراثيون الجدد" وسيعرف القارئ سبب اختيار المؤلف لهذا العنوان عندما يمضى فى قراءة هذا الفصل الذى يبدأه المؤلف بمناقشة موقفه الشخصى من الدين، ثم ينتقل إلى مناقشة دور الدين فى المجتمع.

فى البداية يقول إن بيت أبيه لم يكن من البيوت التى تراعى الالتزام بشعائر الدين، وإن كان الإحساس الدينى متواجداً لدى أبيه الذى كان يعلق على أخلاق المسلم أهمية أكبر مما يعلقه على شعائر الدين، وكان لأمه أيضاً تدينها الهادىء القابع بداخلها، لا يتجلى إلا عندما تسمع قولا تشتم منه شبه الكفر بالله.

سمح له هذا الجو المتسامح بأن يحدد موقفه من الدين بنفسه، وأن يطور هذا الموقف وفقاً لتحول ولاءته من مذهب فكرى إلى آخر. بدأ كما عرفنا باعتناق مبادئ حزب البعث الاشتراكية، ولا تطلب من معتنقيها اتخاذ أى موقف محدد من الدين، وقد كان ذلك ملائماً له. تحول بعد ذلك إلى الماركسية -وهى مذهب فكرى يرفض الدين بصفة عامة- بل ويعاديه، ولكن هذا الأمر مر بالمؤلف بسلام، اذ بدى له أن الاعتراف بأزلية المادة أمراً بديهياً.

ولكن المؤلف سرعان ما هجر الماركسية بشقيها الاقتصادى والفلسفى. وقد عرفنا فيما سبق كيف هجر الشق الاقتصادى، أما الشق الفلسفى فقد استعان عليه بمذهب فلسفى غربى آخر هو"الوضعية المنطقية" وهو مذهب يرى أن كافة المسائل الميتافيزيقية لا تستحق الاهتمام، ومن ضمن هذه المسائل، بالطبع، مسألة الدين، ومسألة أزلية المادة، إضافة إلى مسائل عديدة أخرى. تحمس المؤلف للوضعية المنطقية فى وقت ما، بدرجة جعلته يعبر عن حماسه لها أمام قس طلبت منه أم خطيبته (أم زوجته الحالية) أن يقابله قبل الزواج من ابنتها نظراً لما شعرت به من قلق تجاه مشروع زواج ابنتها المسيحية من شاب مسلم.

فى أوائل السبعينيات اتضح له أن الفكر الغربى لا يستطيع أن يقدم كافة الإجابات، وأن الحضارة الغربيه ليست حضارة عالميه ينبغى اتخاذها نبراساً يُحتذى. وكان السبب فى ذلك هو ما لاحظه من تدهور فى القيم عندما وصلت المجتمعات الغربية إلى درجة من التقدم الاقتصادى أتاح لمواطنيها درجة من الرفاهية افتقدوها قبل ذلك.

دفعه ذلك إلى تحويل نظره إلى تراث أمته للبحث عن إلهام جديد. لم يكن الأمر بالنسبة له وقتها (ولا هو الآن) مسألة نقد للغرب أو محاولة إثبات أننا أفضل منهم، بل هى مسألة اختلاف ثقافات وأذواق وميول وعادات وتقاليد لها جذور بعيدة. لقد تبين له، بعد طول تفكير، أن الثقافة الذاتية لأى أمة تتضمن بالتأكيد الكثير من العناصر التى يمكن أن تصنف ضمن الميتافيزيقا، وأن رفض الميتافيزيقا تماماً معناه رفض مكون هام من مكونات ثقافة أى أمة، وهو أمر يؤدى إلى اختلالات فى الأحكام، وإلى اتخاذ مواقف لا تؤدى إلى النتائج المرجوة.

يناقش المؤلف تحديداً، قضية العلاقة بين الإسلام والمجتمع العربى، ويتحمس للرأى الذى يؤكد على دور الدين فى إحداث نهضة قوميه، بدلاً من اعتباره مجرد طريق للخلاص الروحى للفرد. ويبدوا أن أحد كتبه قد

كشف عن تحمسه لذلك الرأى، واستلفت ذلك نظر بعض الكتاب المتعاطفين مع اتجاه الإسلام السياسى، مثل عادل حسين، وطارق البشرى، فدعوه إلى حضور ندوة دورية يحضرها، فى العادة، عدد محدود من الأشخاص ممن عبروا، بشكل أو بآخر عن اهتمامهم "بالتراث" أو "الأصالة" أو "الاستقلال الثقافى والحضارى" ليناقشوا كل أسبوع أو أسبوعين كتاباً من الكتب التى تثير اهتمامهم.

ولكن هذه الندوه توقفت بعد فترة قصيرة عندما شعر أعضاؤها بقلة جدواها. وبطريقة أو بأخرى ظهرت كتابات أشارت إلى أعضاء هذه المجموعة بوصف "التراثيين الجدد". يقول إنه بعد فتره أصبح يفضل ألا يُدرج اسمه بين أسماء هؤلاء التراثيين الجدد، إذا قد تبين له مدى اختلاف نظرتهم للتراث عن نظرته، وتبين له إن حرصه على التراث يصدر عن دوافع تختلف فى الطبيعة عن دوافعهم، كما أن نوع تعاطفه واحترامه للدين يختلف عن نوع تعاطفهم واحترامهم. ومن ناحية أخرى فهم لم يكونوا على وفاق تام فيما بينهم.

فى الصفحات المتبقية من هذا الفصل — وهى قليلة— يحاول المؤلف أن يشرح موقفه فى قضية الدين ودوره فى المجتمع، ويقول إن تعاطفه مع الدين واحترامه له وحرصه على حمايته ينبع من تعاطفه مع أمته واحترامه لها وحرصه على حمايتها. ويكتشف القارىء أن المؤلف يحلم بتدين هادىء ورصين وبعيد عن الشكليات والتعصب، مثل تدين أبيه، ويحلم بعصر يتعرف فيه الجميع بأن الإسلام ليس ديناً فقط؛ ولكنه أيضاً وطناً وثقافة يجد فيهما الجميع مسلمون ومسيحيون أنفسهم، ويعيشوَن فيهما وبهما حياة خالية من التعصب والخوف. ويستدرك ليقول إن التفكير على هذا النحو أمر يتطلب ظروفاً سياسية، واجتماعيه كانت متوافرة فى العشرينيات والثلاثينيات ولكنها لم تعد متوافرة الآن، ولا يمضى بهذه الفكرة إلى أبعد من ذلك، فلا يعدد هذه الظروف، ولا يناقش تأثيراتها، ولا يذكر كيف تبددت ومتى اختفت. ولكن، علينا أن نتذكر أن ما بين أيدينا هو سيرة ذاتية.

فى الفصل الثامن عشر يكتب المؤلف عن الشيخوخة والمرض، فيعرض لشيخوخة أبيه وأمه وشيخوخته هو شخصياً التى بدأ فى الشعور بها أن جاوز الخامسة والستين. أما فى الفصل التاسع عشر فيتكلم عن خيبة الأمل التى تصاحب الشيخوخة عندما يبدأ الإنسان فى الشعور بأنه لم يحقق الكثير من أمانيه التى طالما حلم بها، وأنه لا فرصة أمامه لكى يحقق أكثر مما حققه، أو عندما يشعر الإنسان بأن أمانيه التى تحققت لم تحقق له من السرور والسعادة، ما كان يتوقعه منها. يحكى المؤلف عن صور من خيبة الأمل التى لحقت بأفراد عائلته : أبيه وأخوته وهو فى أواخر العمر. ولكن فى نهاية الفصل يشعر القارىء أن التفاءل لم يغب تماماً عن عقل وقلب المؤلف، وأنه مازال يرى فى الدنيا أسباباً للسعادة، ويرى أن الأحداث المفرحة مازالت محتملة الوقوع مثلها فى ذلك مثل الأحداث المحزنة. ويرى فى ميلاد حفيد له فى يوم ذكرى موت والد زوجته، بداية واعدة بكل أنواع السرور والحزن وقعت فى ذكرى نهاية حياة حفلت بكل أنواع السرور والحزن.